بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية به ترقى

فن التوجيه

من كتاب (الأساس والتنوير في أصول التفسير)

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن والدراسات القرآنية

الأصل السادس: فن التوجيه

الأساس والتنوير في أصول التفسير

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

ويتضمن المباحث الآتية:

المبحث الأول: معنى التوجيه لغة واصطلاحًا.

المبحث الثاني: مجمل المشكلات التي تحتاج إلى التوجيه.

المبحث الثالث: أنواع المسائل التي تحتاج إلى التوجيه.

المبحث الرابع: أهم المؤلفات في فن التوجيه.

المبحث الأول: معنى التوجيه لغة واصطلاحًا:

لعلك تسأل: ما معنى التوجيه لغة؟

أولًا: معنى التوجية لغة:

(التوجيه) هو مصدر للفعل وجَّه إلى ناحية كذا إذا استقبلها وسعى نحوها، ووَجْهُ الكلام: السبيلُ الذي تقصده به، ومنه يقال: وَجَّهَتِ الريحُ الحصى تَوْجِيهًا إذا ساقته، وخرج القوم فوَجَّهُوا للناس الطريقَ توجيهًا إذا وَطِئُوه وسَلَكوه حتى استبان أَثَرُ الطريق لمن يسلكه[١].

هنا ستسأل: فما التعريف الاصطلاحي للتوجيه؟

ثانيًا: معنى التوجيه اصطلاحًا:

التوجيه مصطلح يكثر دورانه في أكثر من فن فنون العلم، فالفقهاء يستعملونه، ومن يشتغل بالقراءات بحاجة لتوجيه القراءات، وكذا علماء الرسم المصحفي بحاجة لتوجيه وتعليل وجوه الخلف في الرسم، والذي يهمنا هنا التوجيه في استعمال المفسرين.

يُعَرِّفُ الزركشي ﵀ التوجيه بأنه: " ما احتمل معنيين، ويؤتى به عند فطنة المخاطب"[٢]، وانتقد صاحب العون الكبير هذا التعريف، قائلاً: "هو قريب من معنى التورية"، وارتضى تعريف الدهلوي ﵀ ، وهو: بيان وجه الكلام[٣].

المعاني التي يراد به التوجيه في استعمال المفسرين:

فإن قلت: ما المعاني التي يراد به التوجيه في استعمال المفسرين؟

الجواب: يمكن تعريفه بأنه يراد به أحد معنيين في استعمال المفسرين:

المعنى الأول: بيان وجه الكلام الظاهر أي معناه المباشر:

وهو بهذا المعنى يرادف التفسير كقول ابن كثير ﵀ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [القصص:٣٥]: "أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله...، **ووجَّه** ابن جرير ﵀ على أن المعنى: ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما، ثم يبتدئ فيقول: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص:٣٥] تقديره أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا...ولا شك أن هذا المعنى صحيح، وهو حاصلٌ من التوجيه الأول"[٤].

المعنى الثاني: التماس وجه الكلام الخفي، أو التعليل لما يظهر فيه من إشكال:

وهو المقصود بالتوجيه عند الإطلاق، والمقصود منه البحث عن مغزى الكلام الذي أثار إشكالاً في ذهن السامع، "فإذا حلَّ المفسر هذا الإشكال، سمي ذلك الحل: توجيهًا"[٥].

ويمكن أن يكون أعم من ذلك؛ فإن الكلام المعجز يبحث عن وجه ما يرد في ثناياه من الكلام الجلي، كما يبحث عن وجه إيراد الكلام الخفي.

---

(١) لسان العرب (١٣ / ٥٥٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن(٢/ ٣١٤).

(٣) انظر: العون الكبير شرح الفوز الكبير في أصول التفسير (ص: ١٩٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٥١٦).

(٥) انظر: الفوز الكبير في أصول التفسير (ص: ١٩٨).

ومما يؤكد أهمية فن التوجيه حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضًا، إنما نزل يصدق بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»[١]، فنهاهم عن التنازع، وأشار لهم بالجمع بين الآيات وعدم ضرب بعضها ببعض، وأنبأهم عن سؤال العالِمين بها.

المبحث الثاني: مجمل المشكلات التي تحتاج إلى التوجيه

هنا ربما تسأل: فما مجمل المشكلات التي تحتاج إلى التوجيه؟

الجواب: التوجيه يمكن إعماله في عدة مجالات:

فهو"فن كثير الشُّعَب يستعمله الشراح في شرح المتون، ويحصل به امتحان ذكائهم، ويظهر به تباين مراتبهم"[٢]، بل لو نظر الباحث في الدائرة التي تحتاج إلى التوجيه لوجدها تتسع لجميع المسائل التي تحتاج إلى حل، فدخل في هذه الدائرة: مشكلات القرآن العامة، والتضمين، والحذف، والإبدال، والمتشابه...ولكن ذلك يختلف بحسب ذهن الموجه "فالتوجيه بالنسبة إلى المبتدئين غير التوجيه بالنسبة إلى المنتهين: فإن المنتهي ربما يخطر بباله صعوبة فهم، فيحتاج إلى حلها، والمبتدئ غافلٌ عنها، بل لا يقدر أن يحيط بذلك، وكثيرٌ من الكلام يستصعبه المبتدئ، ولا يحصل في ذهن المنتهي شيءٌ من الصعوبة هنالك"[٣].

مثال توضيحي لإشكال وتوجيهه:

فهل تضرب لنا مثلاً تشرح به ما سبق؟

الجواب: من الأمثلة الدقيقة التي توضح أن التوجيه يختلف بحسب الأفهام:

قوله تعالى: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٣]، فقد ذكر البغوي ﷺ أنها «من مشكلات القرآن»[٤]، وذكر فيها عدة إشكالات تحتاج إلى توجيه، ومن هذه الإشكالات:

الإشكال الأول: قال الله ﷻ في الآية قبلها ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [الحج: ١٢]، وقال ها هنا: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ فكيف التوفيق بينهما، فالآية الأولى تنفي الضرر والثانية تُثبت ضررًا ونفعًا؟

قيل في توجيه ذلك بأن قوله في الآية الأولى: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ [الحج: ١٣]، أي: لا يضره ترك عبادته، وقوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ﴾، أي: ضرُّ عبادته عندما يجد عقوبة ذلك[١].

---

(١) أحمد (٦٧٠٢)، واللفظ له، ابن ماجه (١/ ٣٣)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/١١):" هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات". وقال الأرناؤوط:" حديث صحيح، وإسناده حسن"، وصححه الألباني.

(٢) العون الكبير في أصول التفسير (ص: ٢٩٩).

(٣) العون الكبير في أصول التفسير (ص: ٢٩٩).

(٤) تفسير البغوي (٥/٣٦٩).

ووجَّه ابن تيمية ﷺ ذلك بأن الإضرارَ المثبَت المضاف إلى المعبود الباطل غيرُ الإضرار المنفي عنه، فالإضرار المنفي هو فعل الضرر، وإحداثه بالعابد من قبل المعبود، أما المثبَت فهو تسبب عبادة المعبود في وقوع الضرر بالعابد في الدنيا والآخرة... وهذا كما يقال: أهلك الناسَ الدرهمُ والدينارُ، فالمشركون الذين عبدوا غيرَ الله حصل لهم بسبب شركهم بهؤلاء من عذاب الله في الدنيا ما جعله الله عبرةً لأولى الأبصار، قال الله تعالى:﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ ...﴾ [هود: ١٠٠-١٠١][٢]، ولخَّص الألوسي ﷺ ذلك بعبارةٍ رشيقةٍ، فقال: "الضر المنفي ما يكون بطريق المباشرة، والمثبَت ما يكون بطريق التسبب، والنفع المنفي هو الواقعي، والمثبَت هو التوقعي"[٣].

ومقصوده أن المعبود لا يملك ضررًا على العابد مباشرًا بأن ينزل به عقوبة أو يضر ماله وأهله، وكذلك لا يملك أن ينفعه بأن يعطيه مالًا أو يرزقه ولدًا وهو أمر واقع، وأما الضرر المثبت في الآية الثانية فهو ضرر بسبب عبادة ذلك المعبود الباطل فالضرر المثبت إما أن يكون عقوبة من الله في الدنيا لذلك العابد أو عقوبة أخروية، أو قد يكون الضرر هو الانشغال بذلك المعبود الذي لا فائدة مرجوة منه، وأما النفع المتوقع من المعبود الباطل فهو خيال في ذهن العابد، كمن يعتقد أن النار والبرق إله، والشمس إله، والقمر إله فكلهم يتخيلون أن هذه المخلوقات قد تنفعهم في ظنهم وتوقعهم، وليس الأمر كذلك.

الإشكال الثاني:-ولا يخطر غالبًا إلا على ذهن مفسِّرٍ لغويٍ متبحرٍ- وهو قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ﴾ [الحج: ١٣] ما وجه هذه اللام؛ إذ الأصل: (يدعو من ضره)؟

اختلفوا فيه على عدة أجوبةٍ، منها:

اللام في قوله (لمن) لام الابتداء، وهي تفيد تأكيد مضمون الجملة الواقعة بعدها، فلام الابتداء تفيد مفاد (إن) من التأكيد، وقدمت من تأخير؛ إذ حقها أن تدخل على صلة (مَن) الموصولة، والأصل: يدعو مَن لَضَرُّه أقربُ من نفعه.

واستبعده ابن هشام ﷺ؛ لِأَن لَام الِابْتِدَاء لم يعْهَد فِيهَا التَّقَدُّم عَن موضعهَا، ورجَّح أَنَّهَا فِي موضعهَا وَأَن (مَنْ) مُبْتَدأ و﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ خَبره؛ لِأَن التَّقْدِير لبئس الْمولى هُوَ، ثمَّ ذكر أن هَؤُلَاءِ اخْتلفوا فِي مَطْلُوب ﴿يَدْعُواْ﴾ على أَرْبَعَة أَقْوَال، منها:

﴿يَدْعُو﴾ بمعنى يقول: والخبر محذوف، أي: يقول: لمن ضره أقرب من نفعه هو إله[٤].

---

(١) انظر: الكشاف (٣/ ٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٦٩)، وانظر: تفسير البغوي (ص: ٣٦٩).

(٣) روح المعاني (١٧/ ١٢٥)، تفسير البغوي (ص: ٣٦٩).

(٤) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص: ٣٠٨، ٣٠٩، ٥٤١)، روح المعاني (١٧/ ١٢٥)، تفسير البغوي (ص: ٣٦٩). التحرير والتنوير (١٧/ ١٥٨).

قانون التوجيه:

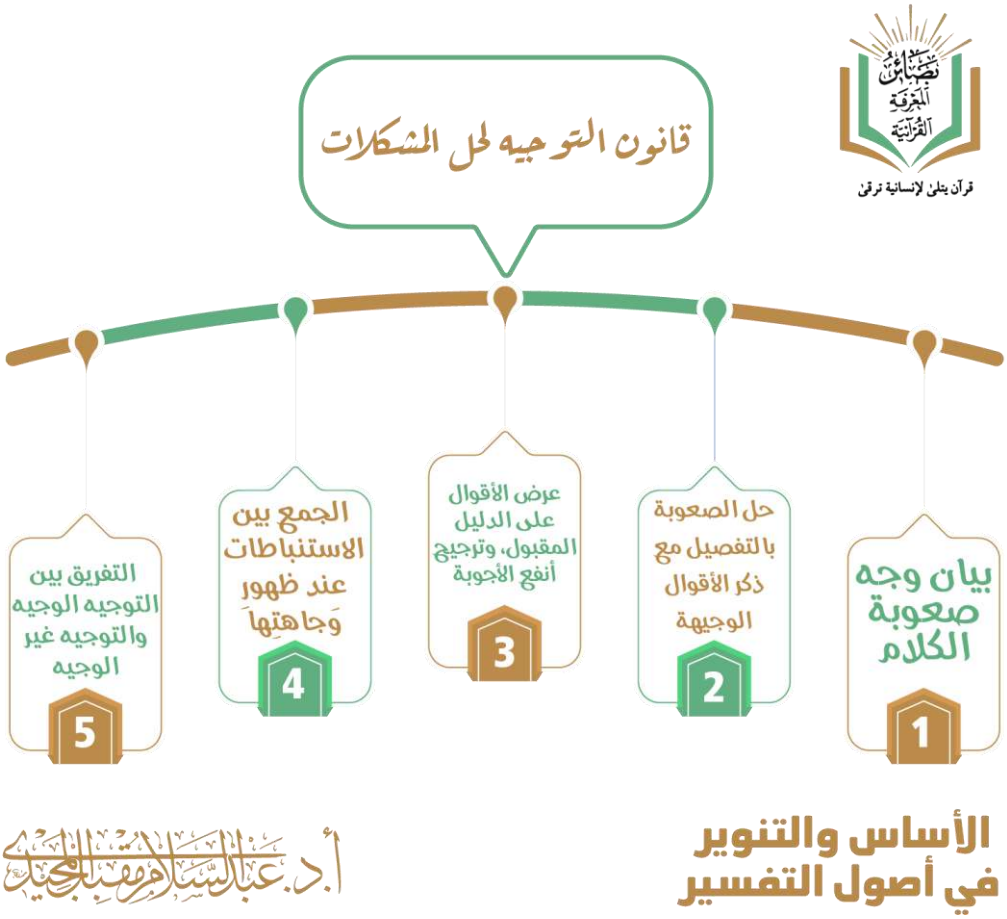

فربما سألت متعجلاً: فهل للتوجيه قانون محدد يمكن الرجوع إليه لنعرف الوجه الصحيح للآية التي نحتاج فيها إلى التوجيه؟

الجواب: حتى يستطيعَ المفَسِّرُ أن يُوجِّهُ الكلام لا بد أن يلتزم قانون التوجيه، وهو الآتي:

أولاً: أن يبين وجه الصعوبة التي تضمَّنها الكلام مفصلاً.

ثانيًا: ثم يتكلم في حل تلك الصعوبة بالتفصيل، ذاكرًا الأقوالَ الوجيهة الممكنة في الجواب.

ثالثًا: ثم يزن تلك الأقوال بعرضها على الدليل المقبول، ويرجّح ما بدا له أنه أنفع الأجوبة.

رابعًا: التوجيه أمرٌ استنباطيٌّ اجتهادي؛ ولذا فقد يجمع فيه بين عدة استنباطات عند ظهورِ وَجاهتِها، كما في قول الشوكاني رحمه الله عند ذكره وجهين للتكرار في قوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾ [البقرة: ٣٨] بعد قوله: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾ [البقرة: ٣٦]، "ولا تزاحم بين المقتضيات، فقد يكون التكرير للأمرين معا"[(١)].

(١) فتح القدير (١/ ١٠٨).

خامسًا: ينقسم التوجيه إلى: توجيهٍ وجيه، وتوجيهٍ غير وجيه، فالتوجيه الوجيه هو ما كان مبنيًا على دليل مقبول عند علماء الفن، وما خالف ذلك فهو مردود كالتأويل الفاسد والتأويل المقبول[1].

المبحث الثالث: أنواع المسائل التي تحتاج إلى التوجيه

وربما سألت: ما الأنواع التي تحتاج إلى توجيه؟

الجواب: من أنواع المسائل التي تحتاج إلى التوجيه:

---

(١) انظر مثلاً: روح المعاني (١١/ ١٨٣)، (١٣/ ١٩٦)، التحرير والتنوير (١٨/٨٣) عند قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ [المؤمنون:٧٦].

سنتحدث هنا عن أنواع سبعة من المسائل التي تحتاج إلى توجيه، وهي عبارة عن نماذج لغيرها من المسائل التي لا تحصى فالإشكال في فهم النص يأتي على صور عدة، وإنما المراد هنا التقريب والتدريب على أمثلة تكون دليلًا على غيرها، وهذه المسائل تتلخص في الآتي:

المسألة الأولى: أن يذكر الله تعالى وصفًا دون غيره.

المسألة الثانية: أن يظهر من وضع الآية في المصحف التأخر مع تقدم السبب بفترة طويلة.

المسألة الثالثة: أن يظهر إشكالٌ في الترتيب.

المسألة الرابعة: استخدام تعبير مستغرب.

المسألة الخامسة: التقدم والتأخر الرتبي.

المسألة السادسة: عدم تصور مصداق الآية على ذهن المبتدئ لوجود شبهةٍ ظاهرة تستبعد مدلول الآية.

المسألة السابعة: ظهور ما يوهِمُ التناقض (التعارض) بين الآيتين.

المسألة الأولى: أن يذكر الله تعالى وصفًا دون غيره:

فتُلْتَمَسُ علة ذلك، أو يبحث عن وجهه، ومثاله:

في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ذكر أهل العلم بالتفسير عدة إشكالاتٍ تحتاج إلى توجيهٍ، منها: لماذا بدأ القرآن بالإشارة إلى أن يكون المرء عبدًا لله؟ لماذا لم يطلب أن يكون المرء تقيًّا، والتقوى أعلى العبادة؟ ولماذا لم يطلب أن يكون شاكرًا، والشكر يختص به قليل من العبَّاد؟

الجواب: من التوجيه لذلك: أن العبادة أول الطريق، ويشترك فيها أكثر المؤمنين، ولذا كانت العبودية أشرف الأوصاف الابتدائية التي توصل إلى ما بعدها، فهفا إليها الخلق؛ ووصف الله تعالى النبي ﷺ بها في أشرف المقامات:

مثل مقام تنزيل الكتاب الخاتم، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]،

ومثل مقام الدعوة إلى الله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]،

ومثل مقام الإسراء والمعراج، ويا له من مقام: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]،

"وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقاتٍ يضيق صدره من تكذيب المخالفين، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩]"[١].

---

(١) تفسير ابن كثير(١/ ٤٨).

وفي ترجمة أحمد بن مُحَمَّد الغزالي (ت٥٢٠هـ)، وهو أخٌ لحجة الإسلام (ت٥٠٥هـ): لمَّا قرأ المقرئ في بعض مجالس وعظه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ﴾ [الزمر: ٥٣]، قال: شَرَّفهم بياء الإضافة إلى نفسه بقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾، ثم أنشد:

وهـان علـيَّ اللّـومُ في جنـب حُبِّهـا وقـولُ الأعـادي إنـه لخليـع

أصـم إذا نوديـت باسـمي، وإنّـني إذا قيـل لي: يا عبـدها لسـميع[1]

وقريبًا منه قول الآخر:

ومـمـا زادني شـرفًا وتيهًـا وكـدت بأخمصـي أطـأ الثـريَّا

دخـولي تحـت قولـك (يا عبـادي) وأن صـيرت أحمـد لي نبيًّـا[2]

وقد قال أبو العباس المرسي (ت ٦٨٦هـ) في قول النبي ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[3]: أي لا أفتخر بالسيادة، وإنما الفخر لي بالعبودية لله[4].

كان هذا النوع الأول من أنواع المشكلات التي تحتاج إلى توجيه، فما النوع الثاني؟

المسألة الثانية: أن يظهر من وضع الآية في المصحف التأخر مع تقدم السبب بفترة طويلة:

فقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ورد في سبب نزولها ما رواه سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِي طَالِبٍ: «يَا عَمِّ، قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦][5]، فقد يستبعد بعضهم ذلك بأن موت أبي طالب قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين، وهذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة، وتوجيه ذلك بالآتي:

أولاً: ما قاله الواحدي رحمه الله: هذا الاستبعاد مستبعد؛ فأي بأس أن يقال: كان ﷺ يستغفر لأبي طالب من ذلك الوقت إلى وقت نزول الآية؛ فإن التشديد مع الكفار إنما ظهر في هذه

---

(١) الوافي في الوفيات (١٠٦١/).

(٢) ينسب البيتان للقاضي عياض، ينظر: المفاخرة بين الماء والهواء، لأبي الفيض الحسني (ص: ٤٦).

(٣) الترمذي (٣١٤٨)، وقال: حديث حسن صحيح، ابن ماجة (٤٣٠٨) وصححه الألباني، وأصله في مسلم (٦٠٠٤).

(٤) نفح الطيب (١٩٢/٢)، كشف الخفاء (١/ ١٥).

(٥) البخاري (١٣٦٠)، مسلم (٤١).

السورة، وعليه؛ لا يراد بقوله: "فنزلت" في الخبر بأن النزول كان عقيب القول، بل يراد أن ذلك سبب النزول، فالفاء فيه للسببية، لا للتعقيب... وهو توجيهٌ وجيه، ومعنى ذلك: أن آية القصص نزلت أولاً لمواساة النبي ﷺ، واستمر الاستغفار لعمه حتى نزلت آية التوبة، فالفاء للمباشرة السببية لا الزمنية.

ثانيًا: كون هذه السورة من أواخر ما نزل باعتبار الغالب كما تقدم، فلا ينافي نزول شيء منها في مكة[١]، ولكن هذا الجواب بحاجة إلى دليل؛ إذ الأصل أن السورة حسب نزول الأول منها مكية كانت أو مدنية، حتى يأتي دليل على نزول بعضها في غير ذلك الموضع.

كان هذا النوع الثاني من أنواع المشكلات التي تحتاج إلى توجيه، فما النوع الثالث؟

المسألة الثالثة: أن يظهر إشكالٌ في الترتيب:

ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]: عطف قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣] على: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ﴾، وفي هذا الترتيب إشكالٌ؛ إذ تمَّ توسيط ﴿ثُمَّ﴾ بينهما، مع أن الاستغفار علامة التوبة، فكيف يتوب بعد الاستغفار؟ وَوُجِّهَ ذلك بالآتي:

أولاً: المراد بالاستغفار هنا: التوبة عما وقع من الذنوب، وبالتوبة: الاستغفار عما يقع منها بعد وقوعه، فكلمة ثم على ظاهرها من التراخي في الزمان، أي: استغفروه من سالف ذنوبكم، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم، كما قال بعض الصلحاء: الاستغفار بلا إقلاعٍ توبة الكذابين[٢]. وهذا التوجيه وجيه، وحقيقته أمران: الأول: الاستغفار العام عن السوالف، والتوبة الخاصة عما يقع بعد، والثاني: الاستغفار العام عن السوالف، والتوبة بالإقلاع عن مقارفة الذنب.

ثانيًا: وقال الفراء ﷺ: إن (ثُمَّ) بمعنى الواو، والعطف تفسيري.

ثالثًا: وقيل: إنما قدم ذكر الاستغفار؛ لأن المغفرة هي الغرض المطلوب، والتوبة هي السبب إليها، فالمغفرة أولٌ في المطلوب وآخرٌ في السبب[٣].

رابعًا: وقيل: الاستغفار ترك المعصية، والتوبة هي الرجوع إلى الطاعة، ورجح ذلك الطبري ﷺ، فقال: «﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ [هود: ٣]؛ وأن اعملوا -أيها الناس- من الأعمال ما يرضي ربكم عنكم، فيستر عليكم عظيم ذنوبكم التي ارتكبتموها: بعبادتِكم الأوثان والأصنام، وإشراكِكم الآلهة والأنداد في عبادته، وقوله: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣] يقول: ثم ارجعوا إلى ربكم بإخلاص العبادة له[٤].

كان هذا النوع الثالث من أنواع المشكلات التي تحتاج إلى توجيه، فما النوع الرابع؟

---

(١) الجوابان في روح المعاني (١١/ ٣٣) بتصرف.

(٢) تفسير القرطبي (٩/ ٧).

(٣) تفسير القرطبي (٩/ ٧).

(٤) تفسير الطبري (٦/ ٦٢٢).

المسألة الرابعة: استخدام تعبير مستغرب:

والغرابة هنا من قبل القارئ لا من قبل التعبير ذاته فالقرآن مبين، وربما كان اللفظ غريبًا عند قوم بينًا ظاهرًا عند آخرين؛ فالغرابة متفاوتة بينهم.

فإن قلت: فما أنواع التعبير المستغرب؟

الجواب: التعبير المستغرب ثلاثة أنواع:

النوع الأول: استغراب استعمال الكلمة لاحتمالها معنىً آخر:

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف:٢٣] ضمير (إنه) يجوز أن يعود إلى اسم الجلالة ويكون (ربي) بمعنى خالقي تولاني بلطفه فلا أركب ما حرمه، ويؤيده العطف عليه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣] ، ويجوز أن يعود إلى معلوم من المقام وهو زوجها الذي لا يرضى بأن يمسها غيره فهو معلوم بدلالة العرف ويكون (ربي) بمعنى سيدي ومالكي أي سيدي الذي رباني وأحسن مثواي حيث أمرك بقوله: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف:٢١] فكيف أخونه في أهله وأجيبك إلى ما تريدين من ذلك[١]، وعلى التأويل الثاني استُغرِبَ أن يكون يوسف عليه السلام ينعت سيده بهذا الوصف (الرب)، فاحتاج الأمر إلى البحث عن وجه ذلك:

١) هذا من بلاغة يوسف عليه السلام إذ أتى بمثل هذا التركيب في لغة القبط تعظيمًا لحق سيده.

٢) وقيل: لأنه أتى بعذرين لامتناعه فحكاهما القرآن بطريقة الإيجاز والتوجيه.

وأيًّاما كان فالكلام تعليل لامتناعه، وتعريضٌ بها في خيانة عهدها...وذكر وصف الرب ليس مستغربًا على التأويل الثاني؛ إذ المراد بهذا التعبير أمران:

١) تفخيم أمر سيد البيت من قبل الخادم، فهو تعريضٌ بها بأنها أولى أن تفعل ذلك بأن تطيعه ولا تخون عهده.

٢) تعليلٌ للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقرب إلى فهم امرأة العزيز[٢]، وأكَّد ذلك بوصفه بجملة: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ أي: جعل آخرتي حسنى؛ إذ أنقذني من الهلاك أو أكرم كفالتي[٣].

النوع الثاني: استغراب الاستعمال من الناحية النحوية الدلالية لمجيئها على خلاف الوضع اللغوي:

مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] فإن الوضع اللغوي يقتضي نفي مدلول كاد؛ إذ مدلولها المقاربة، ونفي مقاربة الفعل يقتضي عدم وقوعه بالأولى كما يقال: ما كتب... فنفى الكتابة، فإذا قال: ما كاد يكتب نفي مقاربة الكتابة، فهو أولى وأبلغ من نفي الكتابة...فيقال: أنى

(١) التحرير والتنوير ١٢/٤٧، فتح القدير ٣/ ٢٣.

(٢) فتح القدير ٣/ ٢٣.

(٣) التحرير والتنوير ١٢/٤٧.

يجتمع نفي مقاربة الذبح مع وقوع ذبحها بقوله: ﴿فَـذَبَحُوهَا﴾ [البقرة:٧١]... فاحتاج التعبير إلى توجيه، وذُكِرَ في توجيهها أقاويل، أهمها:

أ) التعبير جاء على قياس الوضع اللغوي فلا غرابة فيه: إذ ذهب قوم منهم الزجاجي ﷺ إلى أن نفيها يدل على نفي مقاربة الفعل وهو دليل على انتفاء وقوع الفعل بالأولى...فيكون معنى: ما كدت أفعل بمعنى ما فعلت ولا قاربت... وما ورد مما يوهم خلاف ذلك مؤول بأنه باعتبار وقتين فيكون بمنزلة كلامين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] في هذه الآية، أي: فذبحوها الآن وما كادوا يفعلون قبل ذلك، ولعلهم يجعلون الجمع بين خبرين متنافيين في الصورة قرينة على قصد زمانين، وإلى هذا ذهب ابن مالك ﷺ في الكافية، إذ قال:

وبثبوت كاد ينفي الخبر وحين ينفى كاد ذاك أجدر

وغير ذا على كلامين يرد كولدت هند ولم تكد تلد[١]

وهذا المذهب موقوف مع قياس الوضع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم:١٧] أي يبتلعه...يقال: ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغًا: إذا كان سهلاً، والمعنى: ولا يقارب إساغته فكيف تكون الإساغة؟ بل يغص به فيطول عذابه بالعطش تارة، ويشربه على هذه الحال أخرى[٢]، ورجَّح هذا ابن هشام ﷺ، واستدل بقوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ [النور:٤٠]، أي لم يرها ولم يكد...ولهذا كان أبلغ من أن يقال لم يرها؛ لأن من لم ير قد يقارب[٣]، ورجحه الآلوسي ﷺ[٤].

وفائدة هذا التوجيه اختزال التعبير لموقفين: موقف ظهرت فيه استجابتهم لأمر الله تعالى بالذبح، وموقف قبله ظهر فيه طول المماطلة التي جعلتهم يتركون الذبح.

ب) التعبير جاء على نقيض الوضع اللغوي: فإثبات كاد يستلزم نفي الخبر، ونفيها يصير إثباتًا على خلاف القياس، واشتهر هذا بين أهل الإعراب حتى ألغز فيه المعري بقوله:

أنحوي هذا العصر ما هي لفظة أتت في لساني جرهم وثمود

إذا استعملت في صورة الجحد وإن أثبتت قامت مقام جحود

واحتجوا لذلك بقوله تعالى :﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١]، وهذا من غرائب الاستعمال الجاري على خلاف الوضع اللغوي...[٥]، وكذا الأمر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ

---

(١) شرح الكافية الشافية (١/ ٤٦٦).

(٢) التحرير والتنوير(١/ ٣٢٠)، تفسير القرطبي (١١/ ١٦٦)، فتح القدير(٣/ ١٤٤)، روح المعاني (١/ ٢٩٢).

(٣) مغني اللبيب (١/ ٨٦٨).

(٤) روح المعاني (١/ ٢٩٢).

(٥) التحرير والتنوير (١/ ٣٢٠).

يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم:١٧] أي-على التفسير الثاني-إنه يسيغه بعد شدة وإبطاء، كقوله: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] أي يفعلون بعد إبطاء، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ [الحج:٢٠]...ويظهر من كلام الراغب ﷺ ترجيحه لهذا الرأي[١]، ورجحه أيضًا ابن عاشور ﷺ.

النوع الثالث: استغراب من جهة اختصاص المفسرين بمعرفة دلالة اللفظ:

ومثال ذلك ما أورده النحاس ﷺ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ [الحج:٢٩]، قال: "التفث: الحَلْق، والتقصير، والرمي، والذبح، والأخذ من الشارب واللحية، ونتف الإبط، وقص الإظفار"، ثم قال معلقًا: "وكذلك هو عند جميع اهل التفسير، أي الخروج من الإحرام إلى الحل، لا يعرفه أهل اللغة إلا من التفسير"[٢].

كان هذا النوع الرابع من أنواع المشكلات التي تحتاج إلى توجيه، فما النوع الخامس؟

المسألة الخامسة: التقدم والتأخر الرتبي:

والمراد به: أن التقدم والتأخر عادة يحسب بالزمن، فما كان أولاً من الناحية التاريخية أو الزمنية فهو المقدم...ولكن الوصف بالتقدم والتأخر أو القبلية والبعدية قد يكون متعلقًا بالمعنى لا بالزمن، فما كان ترتيبه من حيث المعنى قبليًّا فيوصف بالقبلية من حيث المعنى، فرتبته التقدم وإن كان متأخرًا من حيث الزمن، وما كان بعديًّا من حيث المعنى، فرتبته التأخر وإن كان متقدمًا من حيث الزمن... وهذا ما يسمى التقدم والتأخر الرتبي[٣]، وعلى هذا فالتقدم والتأخر الرتبي هو: ترتيب الإخبار الترتيب الحقيقي المعنوي لا الزمني.

والتقديم والتأخير كما قال سيد صناعة الأدب والبلاغة عبد القاهر الجرجاني ﷺ: "هو بابٌ كثيرُ الفوائد جَمُّ المحاسن واسعُ التصرُّف بعيدُ الغاية. لا يزالُ يفتَرُّ لك عن بديعةٍ ويُفضي بكَ إلى لطيفةٍ"[٤]... وقد أُلفت في هذا الباب عدد من رسائل الدراسات العليا مؤخرًا، لكن الكاتب يشير هنا إلى أهم ملامحه فيما يتعلق بتوجيه المفسرين:

---

(١) مفردات القرآن (ص: ١٢٧٤).

(٢) معاني القرآن للنحاس (٤٠٢/٤).

(٣) انظر: الفوز الكبير في أصول التفسير (ص: ١٩٧).

(٤) دلائل الإعجاز ص ٩٦.

أنواع التقديم والتأخير في القرآن(١):

ولعلك تسأل: ما أنواع التقديم والتأخير في القرآن؟

الجواب: أنواع التقديم والتأخير في القرآن خمسة، هي:

النوع الأول: التقديم والتأخير الاعتيادي (الطبيعي):

أي ما كان المقدم والمؤخر فيه على بابهما في أن يكون الشيء مقدمًا والآخر مؤخرًا، ولهذا التقديم والتأخير حكمة مع أنه أتى على السنة المعتادة: وألف فيه العلامة شمس الدين بن الصائغ ﵀ كتابه: (المقدِمة في سر الألفاظ المقدَّمة) قال فيه: الحكمة الشائعة الذائعة في ذلك الاهتمام كما قال سيبويه ﵀ في كتابه: كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم وهم ببيانه أعنى...ثم بين السيوطي ﵀ تفاصيل أسباب التقديم وأسراره وأرجعها إلى عشرة أنواع: كالتبرك في تقديم اسم الله تعالى في الأمور ذات الشأن، ومنه قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل

(١) قسم ابن الأثير في المثل السائر(٢/ ٣٥) التقديم والتأخير تقسيمًا تفصيليًّا دقيقًا مناسبًا لمقام البلاغة، والكاتب هنا أراد الإشارة إلى أمثلة من الغامض منها ليتم توجيهه وفق المنهج الذي ارتضاه في تعريف التوجيه، ولذا ارتضى هذا التقسيم المبسط.

عمران:١٨] وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ...﴾ [الأنفال:٤١] الآية، وكالتعظيم، كقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [النساء:٦٩][(١)]...

النوع الثاني: التقديم والتأخير الشرعي (أي لبيان حكم شرعي):

كما في قوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:٦] فإن الترتيب هنا شرعي.

النوع الثالث: التقدم والتأخر الإخباري:

إذ يذكر المتكلم أمرًا، ثم يريد ذكر أمر آخر فيقول: كان كذا (ثم) كان كذا، ومراده أن يرتب في الأخبار، لا أن ثم للقبلية والبعدية الزمانية، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، وهذا بعد ذكر القرآن الكريم.

النوع الرابع: التقديم والتأخير التنبيهي:

أي الذي ينبه إلى حكمة معينة فيما قدم، كالاهتمام بالمقدم أو نحو ذلك: ويظهر التقديم والتأخير فيه جليًّا أي يظهر للقارئ أن المؤخر كان ينبغي تقديمه –بادئ الرأي– فيتنبه إلى أن ذلك لم يكن إلا لحكمة، وهذا بعكس التقديم والتأخير الرتبي فإنه لا يظهر ذلك للقارئ إلا بالتأمل...ومثال هذا النوع: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه:١٢٩] فـ "هذا من مقاديم الكلام يقول لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاما"[(٢)]... وقد ذكر السيوطي ﷺ أمثلة من هذا النوع بعضها غير مسلم...على أنه ينبغي السعي في استنباط الحكمة.

النوع الخامس: التقديم والتأخير الرتبي:

وهو المقصود هنا؛ ولا بد من التماس وجهه لأنه خلاف الأصل، وحصر بعضهم فائدة التراخي الرتبي في الترتيب الذِّكْري الذي يجعل المتأخر رتبة المتقدم زمانًا أهم مما قبله، كما في قولك: بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب[(٣)]، ولكن لا بد لذلك من توجيه أدق...إذ لماذا تأخر الإخبار عنه؟ لذا يلتمس التوجيه من الآيات التي فيها ذلك؛ إذ جاء على خلاف الأصل...

فإن قلت هلَّا ضربت مثالًا التقديم والتأخير الرتبي؟

الجواب: ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٤] جاء في تفسيرها عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال أعرابي: أخبرني عن قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٤]. قال ابن

---

(١) الإتقان (٢/ ٣٥).

(٢) الإتقان (٢/ ٣٣).

(٣) تفسير أبي السعود (٣/ ٢٠١).

عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من كنزها فلم يؤدِّ زكاتها فويلٌ له... إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله عَزَّ وَجَلَّ طهرًا للأموال[١].

فالقبلية في كلام ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا محل نظر؛ إذ هذه الآية في سورة براءة، وهي متأخرة النزول، فقد نزلت في السنة التاسعة للهجرة، مع أن الزكاة فرضت في السنة الثانية للهجرة...فما هو توجيه تفسيره؟ **الجواب**: أراد بالقبلية: القبلية المعنوية...كأنه نظر إلى أن آية براءة مجملة لم تتكلم عن الزكاة التي فصلتها آيات أخر، والإجمال مقدمٌ رتبةً على التفصيل...فصار هذا من باب التقدم والتأخر الرتبي...[٢].

توجيه نزول المجمل متأخرًا عن المفصل:

ولكن لا بد من حكمةٍ في نزول المجمل متأخرًا زمنيًا على المفصل مع أن حقه من حيث البيان أن يكون متقدمًا...فما هو توجيه ذلك هاهنا؟

والجواب: لعل من حكمة ذلك: أن الله -تعالى-أراد تشديد الوعيد على مانعي الزكاة من كانزي المال، فجاء التهديد هنا مطلقًا مجملاً غير مفصَّلٍ ليكون أشد في الحذر، والانتباه والسؤال، وهو ما حدث مع ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حينما اهتم الناس لأمر الآية فسألوه عنها، وأفادني بعض حذاق شيوخي توجيهًا آخر فقال[٣]: لعل الجواب هو: إرادة التشديد على الأحبار والرهبان الذين كانوا يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، وتحفيز المسلمين لقتال من كان هذا شأنهم كما جرى في سياق السورة: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ...حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ...﴾ [التوبة:٢٩]، ثم عاب صنيعهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ.. قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا.. يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ..﴾ [التوبة:٣٠-٣٢] كل هذه الآيات في سياق واحد جاءت تشحذ همم المسلمين لقتال هؤلاء الصادين عن سبيل الله، من أهل الكتاب، خصوصًا وأن سورة التوبة نزلت قبل وأثناء وبعد غزوة تبوك وهي الغزوة الموجهة ضد الروم النصارى، والتي كانت إيذانًا ببدء المواجهة مع غير العدو الأول القديم التقليدي (مشركي العرب).

ومن أسباب النهي عن كنز المال أنه يكون مضرة على الفرد وعلى المجتمع وعلى الدولة، فمجرد أن يكنز الإنسان المال هو ضرر، فالأصل في المال أن يُتَّجرَ به ويضارب ويُستثمر ويحرك ولا يكون مكنوزًا، فإذا تكاثر المال بالتجارة، وازداد ازدادت الزكاة ولا يخاف صاحب المال من النفقة في سبيل الله، أما من يكنز المال فإنه يعرض ماله للنقصان والذهاب، وبناء على ما سبق فمن كنز المال لغرض الكنز لا لمصلحة أخرى فإنه يدخل في اللوم والعتب والعقوبة[٤].

---

(١) البخاري (١٤٠٤).

(٢) ينظر: «تفسير المنار» (١٠/ ٣٥١).

(٣) هو شيخنا الدكتور المخبت المنيب-فيما أحسبه والله حسبه- أحمد القضاة، الأستاذ في كلية دبي للدراسات العربية والإسلامية، وعضو جمعية المحافظة على القرآن الكريم المباركة.

(٤) ينظر: استثمار المدخرات ودور الصكوك الإسلامية في ذلك، دراسة شرعية مقاصدية اقتصادية، حسام الدين خليل محمد (ص: ٢٤٢).

كان هذا النوع الخامس من أنواع المشكلات التي تحتاج إلى توجيه، فما النوع السادس؟

المسألة السادسة: عدم تصور مصداق الآية على ذهن المبتدئ لوجود شبهةٍ ظاهرة تستبعد مدلول الآية[١]:

فإن سألت: ما الأقسام التي تندرج تحت هذا النوع؟

الجواب: يندرج تحته الأقسام الآتية:

١) استبعاد صورة رسمتها الآية:

كما في آية ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم:٢٨] فإن سائلاً استشكل هذه الإضافة إلى هارون، فقد كان بين موسى وأخيه هارون وبين عيسى- عليهم السلام- مدة كثيرة، فكيف يكون هارون أخًا لمريم؟ كأن السائل أضمر في خاطره أن هارون هذا هو هارون أخو موسى... فقد جاء عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرؤون: ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»[٢]...فهذا توجيه نبوي للآية.

٢) خفاء معنى التعبير عن حكم لظن مصادمته للواقع الشرعي:

---

(١) انظر: الفوز الكبير في أصول التفسير (ص٢٠٠).

(٢) مسلم (٥٦٤٩).

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة:١٥٨] فقد خفي معنى هذا الحكم (نفي الجناح) الذي يقتضي الإباحة على عروة بن الزبير مع أن المعلوم أن حكم الطواف بين الصفا والمروة الركنية في الحج والعمرة فقال: "سألت عائشة ﵂، فقلت لها: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة:١٥٨]، فوالله ما على أحدٍ جناحٌ أن لا يطُوف بالصفا والمروة، قالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، إن هذه لو كانت كما أوَّلتها عليه، كانت: لا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكنها أُنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلُّون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل، فكان من أهلَّ يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺعن ذلك، قالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة:١٥٨]الآية، قالت عائشة ﵂: وقد سنَّ رسول الله ﷺالطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما، ثم أخبرتُ أبا بكر بن عبد الرحمن فقال: إن هذا لعلمٌ ما كنت سمعتُه، ولقد سمعتُ رجالاً من أهل العلم يذكرون: أن الناس -إلا من ذكرت عائشةُ ممن كان يهل بمناة- كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن، قالوا: يا رسول الله، كنا نطوف بالصفا والمروة، وإن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا، فهل علينا من حرج أن نطوف بالصفا والمروة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة:١٥٨] الآية. قال أبو بكر: فأسمعُ هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما؛ في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام، من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا، حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت"[(١)]...فوجهت عائشة ﵂ الآية بأن معنى (فلا جناح) أي فلا حرج عليكم في الطواف بينهما ولو كنتم عبدتم في الجاهلية عندها الأصنام...فالآية تتكلم على نفي الحرج الذي شعروا به لفعلهم في الجاهلية ولا تتكلم عن الحكم الشرعي الذي هو الركنية، ولو كان معناها (فجائز) لكانت: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما كما قالت عائشة ﵂، ووجهها أبو بكر بن عبد الرحمن بأن الله ﷻ ذكر الطواف بالبيت فقط فتحرج الناس أن يطوفوا بالصفا والمروة لعدم ذكرهما...فأخبرهم الله ﷻ ألا حرج في ذلك.

٣) خفاء معنى قيدٍ من القيود في الآية لظن مصادمته للواقع الشرعي:

كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ [النساء:١٠١] فقد خفي معنى هذا القيد ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ على بعض الصحابة﵃ مع أن الواقع الشرعي جواز قصر الصلاة للمسافر مطلقًا

(١) البخاري (١٦٤٣).

فاحتاج إلى التوجيه فعن يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب ﷺ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [النساء:١٠١] فقد أمن الناس؟ فقال: عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقةٌ تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»[(١)]، قال الدهلوي ﷺ موجهًا: "يعني: لا يكون عند الكرماء في الصدقة مضايقة، فلم يذكر الله – سبحانه وتعالى– هذا القيد للمضايقة، بل القيد اتفاقي"[(٢)].

كان هذا النوع السادس من أنواع المشكلات التي تحتاج إلى توجيه، فما النوع السابع؟

المسألة السابعة: ظهور ما يوهِمُ التناقض (التعارض في ذهن القارئ) بين الآيتين[(٣)]:

أُسُس الكلام عن موهِمِ التناقض

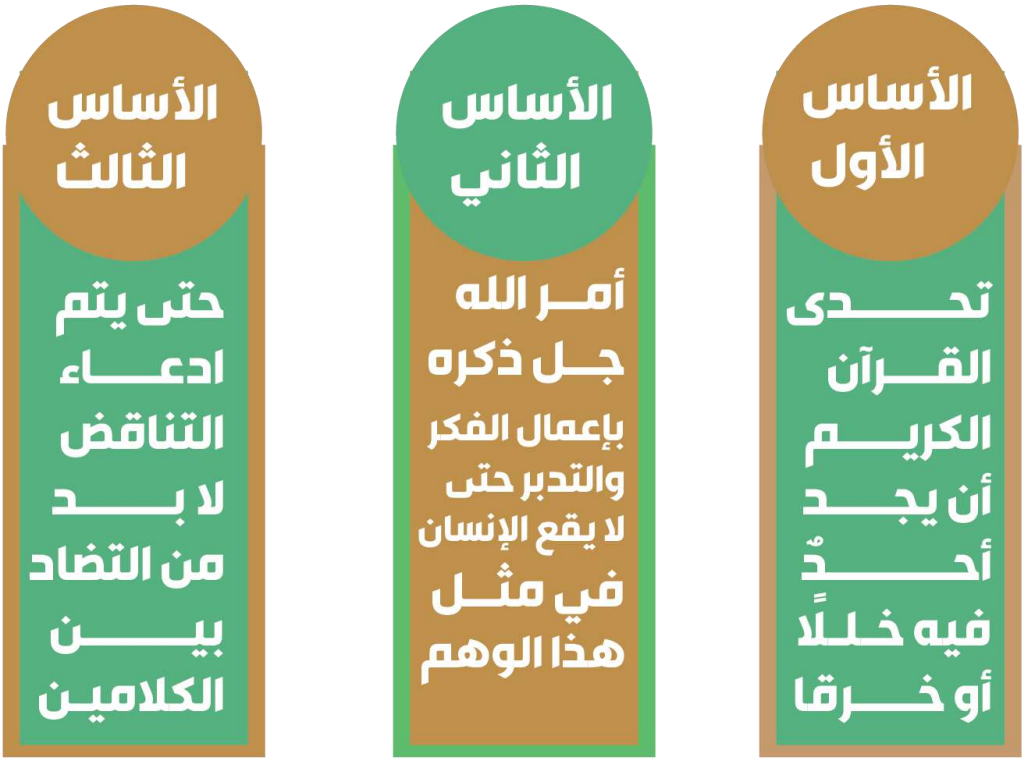

الأساس والتنوير في أصول التفسير

وقد تسأل: كيف يمكن أن نتعامل مع موهم التعارض في القرآن الكريم؟

الجواب: هذه أُسُسٌ في الكلام على موهِمِ التناقض (التعارض):

---

(١) مسلم (١٥١٩).

(٢) انظر: الفوز الكبير في أصول التفسير (ص: ٢٠١).

(٣) انظر: البرهان (٢/ ٥٤)، الإتقان (٢/ ٧٢)، دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب كاملاً.

الأساس الأول: تحدى القرآن الكريم في أثناء حديثه عن نفسه أن يجد أحد فيه خللاً أو خرقًا:

فنفى الريب عنه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ٢]، ونفى عن نفسه الاختلاف الذي يؤدي إلى التناقض: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]؛ ولذا ذُكِرَ عن أبي العباس بن سريج ﷺ أنه سأله رجلٌ عن قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد: ١]، فأخبر أنه لا يقسم بهذا، ثم أقسم به في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين: ٣] فقال ابن سريج: أيُّ الأمرين أَحَبُّ إليك: أجيبك ثم أقطعك، أو أقطعك ثم أجيبك؟ فقال: بل اقطعني، ثم أجبني، فقال: اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجالٍ وبين ظهراني قوم، وكانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزًا، وعليه مطعنًا، فلو كان هذا عندهم مناقضةً؛ لتعلقوا به، وأسرعوا بالرد عليه، ولكنَّ القوم علموا وجهلتَ، فلم ينكروا منه ما أنكرتَ –فهذه قاعدةٌ عامةٌ تنقطع معها الشبه، ثم قال له مجيبًا عن سؤاله الخاص–: إن العرب قد تُدخِل (لا) في أثناء كلامها، وتلغي معناها، وأنشد فيه أبياتا...[١] أي: (فلا) هنا لتأكيد القسم، أي: أُقسِم قسمًا مؤكدًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، ثم قال مبينًا أن (لا) في الآية لتأكيد القسم لا لنفيه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]، وما زالت بعض قبائل اليمن في إب العليا يدخلون (لا) في الإثبات؛ لتأكيد الإثبات لا للنفي، فهذا استعمالٌ عربيٌّ جاء به القرآن المبين.

الأساس الثاني: أمر الله جل ذكره بإعمال الفكر والتدبر؛ حتى لا يقع الإنسان في مثل هذا الوهم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النساء: ٨٢].

الأساس الثالث: حتى يتم ادعاء التناقض لا بد من التضاد بين الكلامين من كل جهةٍ: في الاسم، والحدث، والزمان، والأفعال، والحقيقة:

ولن يوجد في الكتاب ولا في السنة شيءٌ من ذلك أبدًا... أما لو كان الاسم حقيقةً في أحدهما وفي الآخر مستعارًا، ونُفِيَ أحدهما وأُثْبِتَ الآخر، لم يعد تناقضًا[٢]،كما قال أبو إسحاق الشاطبي ﷺ: "إذا تعددت الجهات زال التدافع، وذهب التنافي، وأمكن الجمع"[٣].

المبحث الرابع: أهم المؤلفات في فن التوجيه:

اذكر أهم الكتب المؤلفة في فن التوجيه.

الجواب: أهم المؤلفات في فن التوجيه هي:

الأول: (تأويل مشكل القرآن): لأبي مُحَمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِينَوَري (ت٢٧٦هـ)..

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٤٦).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٥٣).

(٣) الموافقات في أصول الشريعة (٣١٣/١).

الثاني: (شرح مشكل الآثار): لأبي جعفر أحمد بن مُحَمَّد بن سلامة، المعروف بالطحاوي (ت ٣٢١هـ)، وهو وإن كان في الحديث لكن الآيات فيه مبثوثة، بل هي عماد وأصل.

الثالث: يشير المفسرون غالبًا إلى المواضع التي تحتاج إلى توجيه بعبارة: وتوجيه ذلك، أو هذه من مشكلات القرآن ثم يبينون توجيهها، ومن أكثر التفاسير اهتمامًا بذلك: تفسير البغوي، والزمخشري ومقلديه (البيضاوي، والنسفي، وأبي السعود)، والرازي، والألوسي، والطاهر بن عاشور، كما نجد ذلك مبثوثًا في كلام الجويني، والغزالي، وابن القيم، وأبي إسحاق الشاطبي في كتبهم...

الرابع: (مشكلات القرآن): لأبي مُحَمَّد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ).

الخامس: كتاب (البرهان في مشكلات القرآن): لأبي المعالي عزيزي بن عبد الملك المعروف بشيذلة (ت٤٩٤هـ).

السادس: كما أشار محمود بن حمزة الكرماني(ت٥٠٥هـ) إلى شيء من ذلك في كتابه: (غرائب التفسير، وعجائب التأويل).

السابع: (تفسير آياتٍ أشكلت على كثير من العلماء حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير فيها القول الصواب بل لا يوجد فيها إلا ما هو خطأ): لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، وقد حققه في رسالة ماجستير عبد العزيز بن مُحَمَّد الخليفة.

الثامن: أشار الدهلوي في كتابه القيم: (الفوز الكبير في أصول التفسير) إلى فن التوجيه في أكثر من موضع، وجعله من المهمات التي يجب على المفسر معرفتها.

التاسع: ومن الكتب النافعة في هذا المجال: (يتيمة البيان في شيء من علوم القرآن): لمحمد يوسف البنوري وهي في مشكلات القرآن.

العاشر: (دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب): لمحمد الأمين بن مُحَمَّد المختار الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ).

ومن الأمثلة على توجيه موهم التناقض:

قال رجل لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ، [فقد وقع في صدري]... فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تكذيب؟ فقال الرجل: ما هو بتكذيب، ولكن اختلاف، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فهلم ما وقع في نفسك، فقال له الرجل: أسمع الله يقول: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فقد كتموا هذه الآية؟

وقال: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ إلى قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧- ٣٠]، فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:٩ – ١١]، فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء؟

وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، فكأنه كان ثم مضى؟

فقال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠١] في النفخة الأولى، ثم ينفخ في الصور: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فلا أنساب بينهم عند ذلك، ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧].

وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]؛ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فقال المشركون: تعالوا نقول: لم نكن مشركين، فختم على أفواههم، فتنطق أيديهم، فعند ذلك عرف أن الله لا يُكتَم حديثًا، وعندها: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [النساء: ٤٢].

وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء، فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها أن أخرج منها الماء، والمرعى، وخلق الجبال، والجِمال، والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، فجعلت الأرض وما فيها من شيءٍ في أربعة أيام، وخلقت السماوات في يومين.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، سمَّى نفسه بذلك، وذلك قوله، أي: لم يزل كذلك؛ فإن الله ﷻ لم يُرِدْ شيئًا إلا أصاب به الذي أراد، فلا يختلف عليك القرآن، فإن كلاً من عند الله[(١)].

فإن قلت ما خلاصة ما سئل عنه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؟

الجواب: لخَّص ابن حجر رحمه الله حاصل ما سئل عنه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأنه عن أربعة مواضع:

الأول: نفي المسألة يوم القيامة وإثباتها.

الثاني: كتمان المشركين حالهم وإفشاؤه.

الثالث: خلق الأرض أو السماء أيهما تقدم.

الرابع: الإتيان بـ (كان) الدالة على المضي مع أن الصفةَ لازمة.

وحاصل جواب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن الأول: أن نفي المساءلة فيما قبل النفخة الثانية، وإثباتها فيما بعد ذلك.

وعن الثاني: أنهم يكتمون بألسنتهم، فتنطق أيديهم وجوارحُهم.

وعن الثالث: أنه بدأ خلق الأرض في يومين غير مدحوة، ثم خلق السماوات، فسواهن في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسي وغيرها في يومين، فتلك أربعة أيام للأرض.

---

(١) البخاري (٤/ ١٨١٤)، وانظر: تفسير الطبري (٤/ ٩٥).

وعن الرابع: بأنّ (كان) وإن كانت للماضي، لكنها لا تستلزم الانقطاع، بل المراد أنه لم يزل كذلك[١].

أسئلة تقويمية:

س١: ما معنى التوجيه لغة واصطلاحًا؟

س٢: ما المعاني التي يراد به التوجيه في استعمال المفسرين؟

س٣: ما مجمل المشكلات التي تحتاج إلى التوجيه؟

س٤: التوجيه يختلف بحسب الأفهام اذكر مثالًا يوضح ذلك.

س٥: ما القانون الذي يمكن الرجوع إليه للتعرف على الوجه الصحيح للآية التي تحتاج إلى التوجيه؟

س٦: ما الأنواع التي تحتاج إلى توجيه؟ مع ذكر مثال على كل نوع.

س٧: مثِّل بمثال على التقديم والتأخير الرتبي؟

س٨: ما أنواع التعبير المستغرب؟

س٩: عدِّد أنواع التقديم والتأخير في القرآن.

س١٠: ما الأقسام التي تندرج تحت استبعاد مدلول الآية لوجود شبهةٍ ظاهرة؟ واذكر مثالًا لكل قسم.

س١١: ما أُسُس الكلام عن موهِمِ التناقض؟ ومثِّل بمثال يوضح ذلك.

س١٢: كيف بيّن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا للسائل عدم وجود التناقض والاختلاف في القرآن الكريم؟

س١٣: اذكر تلخيص ابن حجر للأسئلة التي سئل عنها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في دفع موهم التناقض، والجواب عنها.

س١٤: اذكر أبرز الكتب المؤلفة في فن التوجيه.

---

(١) فتح الباري (٨/٥٥٨).